**السنة الثانية ماستر / أ. سامية إدريس**

**أدب عربي حديث ومعاصر المناهج النقدية الغربية**

|  |
| --- |
| **البنيوية** |

1. **تعريف البنية** (structure):

في اللغة العربية تشتق كلمة (بنية) من الفعل الثلاثي (بنى)؛ وتعني البناء أو الطريقة، وكذلك تدل على معنى التشييد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء، أو الكيفية التي شيد عليها، وفي النحو العربي تتأسس ثنائية المعنى والمبنى على الطريقة التي تبنى بها وحدات اللغة العربية، والتحولات التي تحدث فيها. ولذلك فالزيادة في المبنى زيادة في المعنى، فكل تحول في البنية يؤدي إلى تحول في الدلالة، والبنية موضوع منتظم، له صورته الخاصة ووحدته الذاتية؛ لأن كلمة (بنية) في أصلها تحمل معنى المجموع والكل المؤلف من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، ويتحدد من خلال علاقته بما عداه.

والبنية: تعني (structure) مشتقة من الكلمة اللاتينية (structura) من الفعل (strure) بمعنى (construire). البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما، ثم امتد مفهومها ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية، وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي.

**اصطلاحا** يعرفها لالاند بأنها: "كل مكون من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ماعداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه". ومن هنا فالبنية طريقة من خلالها تتجانس وتتآلف مختلف أجزاء مجموعة ما، ولا تحمل معنى إلا في إطار المجموعة ككل. إن البنية عبارة عن مجموعة متشابكة من العلاقات، وهذه العلاقات تتوقف فيها الأجزاء أو العناصر على بعضها البعض من جهة وعلى علاقتها بالكل من جهة أخرى، فمقولة "البنية ليست في التحليل الخير سوى حيلة عقلية أو نشاط ذهني يهدف إلى إدراج الأشياء في نظم مفهومة معقولة، واضحة التركيب بيّنة الوظائف، محكومة في علائقها وارتباطاتها"

ويرى ليفي شتراوس أن " البنية مجرد طريقة أو منهج يمكن تطبيقها في أي نوع من الدراسات تمامًا؛ كما هي بالنسبة للتحليل البنيوي المستخدم في الدراسات والعلوم الأخرى" فشتراوس يحدد البنية بأنها "نسق يتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى"[3]. ويمكن أن نعرف البنية بأنها ليست صورة الشيء أو هيكله أو عناصره أو أجزاءه أو وحدته المادية أو شيئيته الموضوعية ولا حتى التعميم الكلي الذي يربط أجزاءه.

كما أن البنية ليست ذاتية ولا موضوعية، ولا هي مادية أو مثالية، وهي ليست كامنة في العقل وليست انعكاساً لشيء في الواقع على عقل الإنسان، وليس لها وجود متعال، وليس لها وجود ذاتي أو تجريبي أو موضوعي أو وضعي. فالبنية، في واقع الأمر، شبكة العلاقات التي يعقلها الإنسان ويجردها ويرى أنها هي التي تربط بين عناصر الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه، وهي القانون الذي يتصور الإنسان أنه يضبط العلاقات بين العناصر المختلفة. وهذا القانون هو الذي يمنح الظاهرة هويتها ويضفي عليها خصوصيتها. ويتم التعرف على البنية من خلال علاقة التعارض والتشابه بين العناصر المختلفة.

1. **خصائص البنية:** وحدد بياجيه خصائص البنية بأنها ثلاث:

1- الكلية: وتعني أن البنية ليست موجودة في الأجزاء.

2- التحولات: وهي التي تمنح البنية حركة داخلية وتقوم في الوقت نفسه بحفظها وإثرائها دون أن تضطرها إلى الخروج عن حدودها أو الانتماء إلى العناصر الخارجية.

3- التنظيم الذاتي: ويعني أن البنية كيان عضوي متسق مع نفسه منغلق عليها مكتف بها، فهي كل متماسك له قوانينه وحركته وطريقة نموه وتغيره، ومن ثم فهي لا تحتاج إلى تماسكه الكامن.

1. **مفهوم البنية الأدبية:**

إذا كانت البنية تصورا تجريديا من خلق الذهن وليست خاصية للشيء، فإن البنية الأدبية ليست شيئا حسيا يمكن إدراكه في الظاهر، حتى ولو حددنا خصائصها التي تتمثل في عناصرها التركيبية، وإنما هي تصور تجريدي يعتمد على الرموز وعمليات التوصيل. وقد حاول بعض النقاد تعريف البنية في الشعر بالمفهوم العريض لهذه الكلمة، بأنها جملة المبادئ التي تحكم عملية التوليد الشعري بحيث يتبع كل عنصر عنصرا آخر.

على أنه ينبغي أن نفرق بين "البنية" و"الشكل"، فالبنية هي المصطلح الأكثر تجريدا والذي يحيل إلى مبادئ توليد وخلق العمل الأدبي ويترتب عليها النظام الذي تتخذه الوحدات المكوِّنة له، أما الشكل فهو الهيكل الناتج عن قوانين الصياغة ومبادئ التكرار والقوالب التي توضع فيها عناصر معينة. ولا بد أن نميز بين البنية من ناحية والأسلوب من ناحية أخرى، فالبنية تتصل بتركيب النص، بينما يمس السلوب النسيج اللغوي المكتوب به بحسب، ففي القصة سنرى أن البنية ترتبط بمستويات الحكاية المختلفة ووظائف الزمن والشخصيات وهيكل الأحداث، أما السلوب فيقتصر على تحليل الخلايا اللغوية التي تشف عن هذه المستويات.

1. **تعريف البنيوية**:

قد اختلف الدارسون والنقاد في تبيان مفهوم البنيوية، حتى البنيويون أنفسهم نجدهم يوردون لها تعريفات مختلفةً، وهي في معناها الواسع "طريقة بحث في الواقع، ليس في الأشياء الفردية بل في العلاقات بينها " وهذا ما ذهب إليه جان بياجه وغيره. ويرى (ليونارد جاكسون) أن البنيوية هي "القيام بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات، والعقول، واللغات، والأساطير، بوصف كل منها نظامًا تامًا، أو كلاً مترابطًا، أي بوصفها بنيات، فتتم دراستها من حيث أنساق ترابطها الداخلية، لا من حيث هي مجوعات من الوحدات أو العناصر المنعزلة، ولا من حيث تعاقبها التاريخي".

والبنيوية (Structuralisme) مذهب من المذاهب التي سيطرت على المعرفة الإنسانية في الفكر الغربي، مؤداه الاهتمام أولاً بالنظام العام لفكرة أو لعدة أفكار مرتبطة بعضها ببعض على حساب العناصر المكونة له. ويعرف أحيانًا باسم البنائية، أو التركيبية، ويرى بياجيه أن المثل الأعلى للبنيوية هو السعي إلى تحقيق معقولية كامنة عن طريق تكوين بناءات مكتفية بذاتها، لا نحتاج من أجل بلوغها إلى الرجوع إلى أية عناصر خارجية. وقد امتدت هذه النظرية إلى علوم اللغة عامة وعلم الأسلوب خاصة؛ حيث استخدمها العلماء أساسًا للتمييز الثنائي الذي يعتبر أصلاً لدراسة النص دراسة لغوية. وكل ظاهرة - تبعاً للنظرية البنيوية - يمكن أن تشكل بنية بحد ذاتها؛ فالأحرف الصوتية بنية، والضمائر بنية، واستعمال الأفعال بنية... وهكذا.

1. **روافد البنيوية في النقد الأدبي:**

ظهرت البنيوية في تخصصات مختلفة، والذي يُهِمُّنا هنا هو الحديث عن ظهورها في النقد الأدبي.

لم يتبلور المنهج البنيويَّ في الساحة النقدية الأدبية واللغوية إلا في منتصف القرن العشرين، وتحديدًا في فرنسا في عقد الستينيَّات من القرن العشرين، وذلك عندما قام تودوروف بترجمة أعمال الشكلانيين الروس إلى اللغة الفرنسية في كتاب بعنوان: "نظرية الأدب، نصوص الشكلانيين الروس".

فحركة الشكلانيين الروس أول رافد من روافد البنيوية الأدبية، حيث دعت إلى العناية بقراءة النص الأدبي من الداخل واستبعدت علاقة الأدب بالأفكار والفلسفة والمجتمع والتاريخ.

و مع ذيوع صيت علم اللسانيات الحديث، والذي يتقاطع مع المدرسة الشكلانية الروسية، ولعل هذا المصدر هو أهمُّ مصادر البنيوية، ولا سيما لسانيات دي سوسير الذي يُعد رائد االلسانيات البنيوية، بسبب محاضراته "دروس في الألسنية العامة"، وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة "بنية" فإن الاتجاهات البنيوية كلها قد خرجت من لسانياته ، فيكون هو قد مهَّد لاستقلال النص الأدبي بوصفه نظامًا لغويًّا خاصًّا، وفرَّق بين اللغة والكلام، ووضع مجوعة من الثنائيات حول الدال والمدلول، الدراسة الآنية والدراسة التعاقبية، العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية ..الخ.

ومن روافد البنيوية إسهام "حلقة براغ"، وهي حلقة دراسية كان زعيمها "ماتياس" لكن المحرِّكَ الرئيسَ لها هو نفسه مؤسس المدرسة الشكلية الروسية "جاكبسون" الذي تنقَّل بين روسيا وبراغ والسويد والولايات المتحدة الأمريكية، فكان أينما حلَّ بشَّر بآرائه، وكان له دَور فعَّال في نشر الوعي بالنظرية الجديدة وترسيخها في أوساط المثقفين. منذ نشأتها حددت حلقة براغ منهجها بالانطلاق من تصور اللغة باعتبارها نظاماً وظيفياً يرمي إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل. فإذا كان دور اللغة هو توفير أسباب التواصل فإن دراسة اللغة ينبغي أن تراعي ذلك. ففي مجال الدرس الصوتي، على سبيل المثال، اهتموا بتحديد أنماط التقابلات الصوتية في اللغة المدروسة. وبناء عليه، تناولوا الأصوات بما يؤديه الصوت من وظيفة تواصلية في سلسلة الكلام. وانصب اهتمامهم في هذا المجال على النظام الصوتي المستدل عليه من دراسة الأصوات المنطوقة، أي ركزوا على جانب اللغة لا الكلام، بما أقره دي سوسير مجالا لعلم اللغة. وأسفرت دراسات جاكبسون وتروبتسكوي في هذا المجال عن تطوير نظرية الفونيم، وعلم الأصوات (phonetique) وعلم النظم الصوتية (phonologie).

**6 . من مبادئ البنيوية في النقد الأدبي:**

\* تقوم البنيوية في النقد الأدبي على تحليل النصوص تحليلا شموليا، بمعنى أنه لا يحسن الاكتفاء بتناول جزء أو أكثر من العمل الأدبي،كتناول المعنى مثلا أو الصورة أو الأسلوب أو المجاز أو الألفاظ...الخ، ذلك أن النص الأدبي يتكون من مجموع هذه العناصر، كما أن هذه العناصر بتواجدها فيه تفقد طبيعتها السابقة وتصبح شيئا جديدا يستمد قيمته الأدبية من النص. وهاجس الناقد البنيوي هو البحث فيما يوحد هذه العناصر وما بينها من تناقض واختلاف، ويصهرها في الغطار الذي يمثله النص؛ فالعناصر المتناقضة مثلا تحتاج إلى محور تنتظم وفقه، والكشف عن هذا المحور هو هدف الناقد البنيوي، وذلك بأن يتأمل عناصر النص وطرق أدائها لوظائفها وعلاقات بعضها ببعض دون تجاوز حدود النص إلى أي موقع آخر.

\* تهدف البنيوية في النقد الأدبي إذن إلى فهم المستويات المتعددة للأعمال الأدبية ودراسة علاقاتها وتراتبها، والعناصر المهيمنة على غيرها وكيفية تولدها، ثم – وهذا أهم شيء- كيفية أدائها لوظائفها الجمالية والشعرية على وجه الخصوص.

\* ينطلق البنيويون من رفض أحكام القيمة الخارجية وإحلال حكم آخر محلها هو حكم الواقع، وحكم الواقع لا يتمثل في الحياة الخارجية ولا تياراتها، وإنما يتمثل في الدرجة الأولى في النص الأدبي ذاته، الواقع هو النص الأدبي ذاته، ما ينبثق من النص وما يتجلى فيه من كفاءة شعرية ومستوى أدبي.

\* لا تفاضل البنيوية بين الأجناس الأدبية، مثلما هو الحال في الرومنسية التي تؤثر الشعر أو الواقعية التي تفضل الرواية، بل تتساوى لديها جميعا، فبقدر ما يمكن للقصيدة ان تتسع لتحليلها، يمكن للرواية والقصة وغيرها من الأجناس أن تصبح مجالا تتمثل فيه عمليات البحث عن البنى الكبرى والبنى الصغرى والتقاط كيفية انتاجها لدلالتها، كما أن كثيرا من البنيويين اتجهوا إلى النصوص الأدبية القديمة لإعادة قراءتها في ضوء مناهجهم الجديدة.

7. **من نماذج النقد البنيوي: "التحليل البنيوي للسرد" رولان بارت**

يهدف رولان بارت في مقاله المعنون "التحليل البنيوي للسرد" إلى إقامة نظرية عامة للسرد عن طريق الكشف عن بنيته الثابتة وراء تنويعاته اللامتناهية، حيث يقول أنه إما أن السرد هو عبارة عن تجميع بسيط لا قيمة له لأحداث ما، وفي مثل هذه الحالة لا يمكننا الحديث عنها إلا بالاحتكام إلى الفن أو إلى الموهبة، وإما أن السرد يشترك مع سرود أخرى في البنية القابلة للتحليل مع وجوب بعض التروّي للكشف عن تلك البنية، ويؤكد منذ البداية أننا لكي نتمكن من وصف لانهائية تلك السرود لا بد أن نستند إلى نظرية، وصياغة نظرية عامة للسرد يتطلب نموذجا يزودها بمصطلحاتها ومبادئها الأولى. ويتوصل إلى القول: "في الوضع الراهن للبحث، يبدو من المعقول اتخاذ اللسانيات نفسها نموذجا مؤسسا للتحليل البنيوي".

يستعين رولان بارت بنظرية المستويات حيث يقيم تماثلا بين الجملة والسرد، فكما أن الجملة تعرف من خلال مستويات متراتبة فيما بينها تتضافر لإنتاج الدلالة، كذلك الشأن بالنسبة للسرد، حيث يمكن تقسيمه إلى مستويات، يتمتع كل منها باستقلالية نسبية تمكن من وصفه، ولكنه لا ينتج الدلالة إلا انتقلنا به إلى مستوى أعلى. فعلى صعيد الجملة، نجد أن الوحدة الصوتية على الرغم من قابليتها للوصف في ذاتها فإنها لا تعني شيئا، ولا تصبح طرفا مشاركا في المعنى إلا عند اندماجها في الكلمة، والكلمة نفسها عليها أن تندمج في الجملة. تزودنا نظرية المستويات بنوعين من العلاقات: توزيعية إذا كانت العلاقات على نفس المستوى، وإدماجية إذا أمكن الإمساك بها عن طريق الانتقال إلى مستوى آخر، ويترتب على ذلك ان العلاقات التوزيعية لا تكفي وحدها للكشف عن المعنى.

بناء عليه، يقترح بارت على غرار الجملة، أن يحلل السرد وفق ثلاثة مستويات هي:

1. مستوى الوظائف
2. مستوى الأفعال
3. مستوى السرد
4. مستوى الوظائف: تتحدد اصغر الوحدات السردية بمعيار المعنى، أو الطابع الوظيفي لمقاطع القصة، "إن روح كل وظيفة هي، إن جاز القول، بذرتها، وهو ما يتيح لها أن تبذر في السرد عنصرا سينضج فيما بعد على الصعيد نفسه أو بعيدا على مستوى آخر". وهو يميز بين نوعين من الوظائف: وظائف توزيعية نستخرجها على مستوى أفقي (واحد)، ويطلق عليها مصطلح "الوظائف" ووظائف إدماجية لا يتضح معناها إلا بالانتقال من مستوى إلى آخر، ويخصها بمصطلح "القرائن". تتفرع "الوظائف" بدورها إلى أنوية أو وظائف رئيسية، ووظائف ثانوية يسميها الوسائط. تنتظم الأنوية فيما بينها لتحدد المتواليات السردية، التي يعرفها: "إن المتوالية منظومة منطقية من النوية توجد بينها علاقة تضامن"، وبالامكان اندغام مجموعة من المتواليات لتحديد وحدات سردية كبرى.
5. مستوى الأفعال: يتناول بارت في هذا المستوى الشخصيات حيث يحددها بنيويا انطلاقا من إسهامها في حلقة الأفعال، "فالشخصيات مستوى وصف لازم يسمح بتجلي الأفعال، وهي تتحدد، لا بما هي عليه، بل بما تعمله"، والأفعال تصنف في تمفصلات كبرى للسرد هي ، كما حددها بارت،؛ الرغبة، التواصل، المواجهة. لكن الشخصيات كوحدات للمستوى الخاص بالأفعال لا تصبح ذات معنى إلا إذا اندمجت في المستوى الثالث للتحليل البنيوي الذي يسميه مستوى السرد.
6. ينطوي السرد على وظيفة تبادلية باعتباره موضوعا يراهن على إقامة تواصل، أي أن هناك مانحا للسرد ومستقبلا له وتواصلا سرديا بينهما. "إن المستوى السردي تحتله إذن العلامات السردية وهي مجموع العناصر الإجرائية التي تدمج الوظائف والأفعال داخل التواصل السردي، وقد تتمحور حول مانحه ومتلقيه".

يتوصل بارت إلى تحديد قوانين توليد البنية السردية متمثلة في **التلفظ** الذي يتميز بقدرتين أساسيتين هما "التمدد" بمعنى القدرة على نشر علاماته على امتداد السرد، و"الاتساع" بمعنى إدراج توسعات غير منتظرة ضمن تلك التمددات. والإدماج وهو عامل تشاكل (مزج للعلامات بسياقها).

إن الأعمال الأدبية برمتها أبنية كلية لان دلالتها ترتبط بالدرجة الولى بهذا الطابع الكلي لها، فالقصيدة لا تصبح مجرد مجموعة من الأبيات، نعاملها في الظاهر على انها محصلة لهذه الأبيات، يعني ذلك أن القصيدة لا تبنى من أبيات كما توحي به النظرة السطحية بل تبنى بين مستويات، وهي التي يمكن تقسيم العمل الأدبي إليها، تخترق هذه الأجزاء وتتغلغل فيها وتشتبك معها، يمكن أن ندرك من ذلك أن البنية الدلالية للقصيدة الشعرية مثلا هي محصلة مجموعة البنى لمتمثلة في البنية الإيقاعية والبنية المعجمية، والبنية التركيبية والبنية التخييلية التي تصل ذروتها في المستوى الرمزي الكلي.

**8. تقييم عام:**

أسرفت البنيوية في عزل النص عن سياقه الاجتماعي والتاريخي حيث تتجاهل التاريخ تجاهلا تاما، وتغرق في رسوم بيانية وجداول معقدة تخبرنا بأشياء نعرفها مسبقا، فهي تختزل النص الأدبي في قوالب صورية عقيمة، وتجرد الأدب ونقده من صفاتهما الإنسانية مما أدى باكثر روادها إلى التخلي عنها وعلى راسهم رولان بارت الذي أنكر مفهوم العلمية البنيوية في مستهل كتابه " S/Z" 1970 معلا من جانبه انعدام الجدوى من أي منهجية نقدية، ومن البنيويين الذي تنكروا للبنيوية بل عجلوا في الدعوة إلى هدمها جاك دريدا الذي هاجم ما فيها من تجريد واختزال شكلي وآنية كيتافيزيقية، وجوليا كريستسفا ومجموعة Tel Quel التي دعت إلى سيميائية جديدة.

**أهم المراجع المعتمدة:**

صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر.

صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي

رولان بارت "التحليل البنيوي للسرد" مترجم ضمن "طرائق تحليل السرد الأدبي".